

## عناصر التراث بين الأنثروبولوجيا والأدب الشعبي

HERITAGE ELEMENTS BETWEEN ANTHROPOLOGY AND POPULAR LITERATURE  
ÉLÉMENTS DU PATRIMOINE ENTRE ANTHROPOLOGIE ET LITTÉRATURE POPULAIRE

المؤلف 1: عمر جادي

المؤلف 2 : عبد العزيز بوشاللق

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

البريد الإلكتروني: amar.djadi@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2019/12/12

تاريخ القبول: 2019/10/14

تاريخ الإرسال: 2019/10/05

عبد العزيز بوشاللق.

Chelaleg@gmail.com

ملخص:

يرتبط كيان الأدب الشعبي والأنثروبولوجيا كعلم في المنطلق الذي يساعد على البحث في المنتج المادي والشفوي وفعاليتها في التوازن الثقافي للفرد والمجتمع، داخل بيئته الضيقة، ليعبر عن إحساسه تجاه المواقف المختلفة، وعن نظريته للحياة، وكيفية التعامل مع المواقف والمستجدات. ومثلما يرتبطان بالتاريخ في محاولة الكشف عن الحقب الزمنية الغابرة، يرتبطان كذلك بالجغرافيا لأنها تحدّد لهما المعالم التي يسكنها البشر قديما وحديثا وتسهّل عليهما سرعة اكتشاف الجوانب الثقافية والحضارية التي أنتجها الإنسان على هذه الرقعة الجغرافية. لذا نجد أنّ الظواهر الاجتماعية والثقافية عندما تنتقل من مجال الدين إلى مجال الأدب تتشكل بأسلوب مغاير، لما كانت عليه بسبب تفاعلها مع الحقل الجديد، في ظلّ التراث الشعبي الذي يبحث في موضوع المراهانات التي لا تقل أهمية عن موضوع الأنثروبولوجيا. لذلك عرف الاثنان المصير نفسه وخضعا لمسيرة تكاد تكون واحدة من حيث الرفض والإقصاء والالتهامات والنوعت السلبية.

الكلمات المفتاحية:

الأنثروبولوجيا الأدب الشعبي، الدين، الثقافة، الفرد، المجتمع

**ABSTRACT :**

*The entity of popular literature and anthropology is linked as a science in the premise that helps in research on the physical and oral product and their effectiveness in the cultural balance of the individual and society, in its narrow environment, to express his sense of different attitudes, his vision of life, and how to deal with attitudes and developments. Just as they are related to history in trying to discover ancient times, they are also related to geography because they are defined by the ancient and modern characteristics inhabited by human beings and facilitate the rapid discovery of cultural and cultural aspects produced by man in this geographical area. Therefore, when we move from the realm of religion to literature, social phenomena are shaped differently from their interaction with the new domain, in the light of popular heritage that examines the subject of betting, which are no less anthropology.*

**Keywords:**

Anthropology. Popular literature. Religion. culture. individual. Society

## 1 - مقدمة:

اقترن الحديث عن الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في العصر الحديث، وبصورة رهيبة، بأسئلة جريئة وصعبة وخطيرة، كادت أن تعصف بالكيان العلمي والمعرفي للأنثروبولوجيا نفسها كعلم أصيل وعريق، وبالتراث

الشعبي الذي ظلّ موضوع مراهنات غير مسؤولة وغير علمية ظلت تلاحقه مدة من الزمن... فإن نحن سمحنا لأنفسنا بالاختصار نقول: إن الأنثروبولوجيا قد ارتبطت في المخيال المعرفي الرسمي بأنها علم استعماري بامتياز، سخّرت المنظومات المحتلّة كأداة مثل الاستشراق وغيره، لدراسة ما يمكن معرفته عن البيئة وعاداتها وسكانها، ليسهل التحكّم في مقدراتها، من أجل استعمار البلاد، حيث دفعت لهذه المهمة بعدد من الإداريين ورجال الدّين ورجال الجيش، وكذا بعض الأنثروبولوجيين من أجل دراسة المجتمعات وثقافتها وعاداتها ومعتقداتها وفنونها وأشكالها التعبيرية وأعرافها. ثمّ استثمارها قصد التحضير لاستراتيجية استعمارية تتماشى وأنماط تفكيره.. فكانت الشعوب المستعمرة مجتمعات وثقافات موضوعاً خصباً لهذه الدراسات الأنثروبولوجية التي اتّجهت في معظمها اتجاهاً استعمارياً. ولذلك استند علماء الأنثروبولوجيا على الدراسات التي قام بها المهتمّون بالأدب الشعبي لدى الشعوب المختلفة. ورأوا أنّ علم الفولكلور يؤكّد على أنّ الشعوب مختلفة تماماً في إبداعها لثقافتها القومية من غناء مجهول المؤلف ورقص وأغاني العمل وأغاني المناسبات المختلفة، والإبداع المادي المتمثّل في المنتج الطيني والخزفي، كما يعدّ دراسة جوانب الثقافة القروية. ثمّ توسّع مدلوله فأصبح يشير إلى ثقافات أخرى فرعية. تشمل بحوث علم الفولكلور ودراسة المعرفة التقليديّة والعادات الاجتماعيّة والتراث الشّفاهي والفنيّ لأيّ مجتمع يتّسم ببعض العوامل التي تجمع بين أفرادها، مثل حرفة دأب على تعاطيها أهل تلك المنطقة، وتعاطوها كضرورة ماديّة لمختلف جوانبهم الحياتية، وفنّ له قيمته الجمالية في نفوسهم.

بينما ينطلق الأدب الشعبي من البحث في المنتج الشّفوي وفاعليته في التّوازن الثقافي للفرد والمجتمع، داخل بيئته الضيقة، ليعبر عن إحساسه تجاه المواقف المختلفة، وعن نظرتة للحياة، وكيفية التّعامل مع المواقف والمستجدّات، التي تتعلّق به كفرد، يواجه بعض هذه المواقف، أو تلزمه الضرورة للتّعامل مع الغير، بأساليب معيّنة، فتظهر في مروياته الشّفوية، وهي بمثابة دستور معنوي، ينظّم من خلاله مختلف العلاقات التي يعيشها، وذلك بتدوين المادّة الشعبيّة من أفواه من يحفظها قبل أن تتذكّرهم المنيّة، خاصّة أن هذه المادّة تكون أكثر صدقاً وحقيقة عند من هم كبار في السنّ، فهم يحفظون أقدم المرويات عكس الصّغار في السنّ والذين بطبيعة الحال يأخذون المادّة، ممّن هم أكبر منهم سنّاً: من آبائهم وأجدادهم.

الإشكالية: ولمعرفة كلّ هذه الجوانب تمثّلت إشكالية هذا المقال في سؤال جوهري هو: كيف نتعامل مع التراث في جانبه المادي والمعرفي، وللإجابة عنه لابدّ من رسم جملة من الأهداف، يمكن الوصول إليها، وهي تبين أثر الدّين في المسائل الشّائكة التي تعترض حياة الناس، فيما يبني من علاقات، وتوضيح الارتباط الزّمني والمكاني في معرفة نفسيّات الفرد والمجتمع، داخل الإطارين التّاريخي والجغرافي، وسيتّضح كلّ ذلك فيما يأتي من عناصر.

## 2 - فائدة علم الأنثروبولوجيا

إضافة إلى كون هذا العلم وجد كأداة لخدمة المستعمر في الكشف عن البيئة وسكانها في الجانبين المادي والثّقافي، فهو علم يدرس الإنسان كيفما كان وأينما وجد. ومثلما يرتبط بالتّاريخ في محاولة الكشف عن الحقب الزمنية الغابرة، يرتبط كذلك بالجغرافيا، لأنها تحدّد له المعالم التي يسكنها البشر قديماً وحديثاً وتسهّل عليه سرعة اكتشاف الجوانب الثّقافية والحضارية، التي أنتجها الإنسان على هذه الرّقعة

الجغرافية... كما أنّ موضوع هذا العلم يتناول الإنسان وقضايا المعيشية. كما أنّها لم تبق حبيسة تلك الرؤية الضيقة، التي حاولت أن تحاصرهما وتسجنهما، حين جعلت منها علماً خاصاً بالمجتمعات البدائية والمتخلفة والمتوحشة. تحررت من هذه الرؤية واتّسع مجال نشاطها لتشمل مجتمعات أكثر تقدماً ورقياً وحضارة. يملك الانثروبولوجي من المؤهلات المعرفية والمنهجية والتقنية ما يسمح له بالتعامل مع موضوعه عن قرب ومن الدّاخل ومن الأعماق، وإبراز المخفيّ والمسكوت عنه. وهذا ما قد يساهم في التّمنية وفي البناء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والعقائدي بصورة مهمة وصادقة وذات حسّ واقعي. ((لأنّ الإسهام الحقيقيّ لأية ثقافة لا يتكوّن من قائمة الاختراعات التي أنتجتها، بل من اختلافها عن غيرها، فالإحساس بالعرفان والاحترام لدى كل فرد في أيّة ثقافة تجاه الآخرين، لا يقوم إلاّ على الاقتناع بأنّ الثقافات الأخرى تختلف عن ثقافته في جوانب عديدة، حتّى وإن كان فهمه لها غير مكتمل، ومن ثمّ فإنّ فكرة الحضارة العالمية لا تُقبل إلاّ باعتبارها جزءاً من عملية شديدة التعقيد. ولن تكون هناك حضارة عالمية بالمعنى المطلق الذي روج البعض لاستخدامه، لأنّ الحضارة تعني تعايش الثقافات بكلّ تنوعها. والحقيقة أنّ أيّة حضارة عالمية لا يمكن أن تُمثّل إلاّ تحالفاً عالمياً تحتفظ فيه كلّ منها بأصالتها))<sup>1</sup>

### 3 - دور الدين في التوازن بين ما هو شعبي وما هو انثروبولوجي.

إنّ تناول الدّين لبعض الظواهر يباين تناول الأدب لها. إذ قد تفترق غاية كلّ منهما في ذلك، فعندما تنتقل هذه الظواهر من مجال الدّين إلى مجال الأدب تتشكّل بأسلوب مغاير لما كانت عليه، بسبب تفاعلها مع الحقل الجديد. وربّما حدث ذلك مع كبار كتّاب العربيّة الذين كانوا ينتقدون أحيانا بعض الممارسات الدّينية من رجال كالقضاة أو السّلاطين كما فعل المعري وآخرون. وعلى الباحثين المحدثين أن يتنبّهوا إلى تلك المواقف التي جعلت السّلطة السياسيّة أحيانا تتهم الأدباء من شعراء أو ناثرين، تحت مظلة المخالفة الشرعية توصلنا إلى إبطال فاعليتهم، بدعوى المروق أو الزندقة أو التنبؤ أو الخروج على الدّين. مع أنّ الدّين فيه فرار إلى الله سبحانه وتعالى، وما نظمته الشعراء الشّعبيون وفق ما تقدّم يوضّح الاستسلام للقضاء والقدر، وهو أيضا دعوة إلى التغيير: تغيير ما بالنفس وتغيير الواقع، ففي الدّعاء أو هروب الشعراء إلى الله تجديد للطاقة الإيمانية للعودة إلى الميدان لمواجهة المنكر والتصدي له. وهذا ليس غريبا لأنّ السرّ وراء الاعتصام بالله يرجع إلى أنّ عددا كبيرا من هؤلاء الشعراء كانوا يفقهون الأمور الدّينية.<sup>2</sup>

إنّه في حقيقته نقد لممارسات اجتماعية بعيدة عن الشّرع أصلا. وما هو بخروج عن الدّين في صميمه. وتمتاز منظومة الفكر الديني بمحافظتها على العلاقة بين الغيب والواقع المادي غضة طرية، لتشبع بذلك تطلّع الإنسان وأشواقه.<sup>3</sup>

كما أنّ التّوازن بين الروح والمادّة أو النفخة الإلهية والتّراب بصورة دقيقة لا يجعل أحدهما يتغلّب على الآخر، فيشقى الإنسان بمادية هابطة أو مثالية حاملة. من هنا فإنّ جانبا من المعتقدات تغذي النفخة الإلهية، بالإبقاء على بعض المعجزات والأحداث الخارقة التي تساعد دوما على حضور الفعل الإلهي في الحياة، بطريقة تشعر الإنسان بالأنس والقرب، فلا تجفّ عنده الروح، وتجدر الإشارة إلى أنّ الأثر الدّيني على أهمّيته لا بدّ من أن يعتبره تحوير وتغيير في العمل الأدبي.<sup>4</sup>

وفي الاتجاه نفسه، ظل التراث الشعبي موضوع مراهنات لا تقل أهمية عن موضوع الأنثروبولوجيا. لقد عرف الاثنان المصير نفسه وخضعا لمسيرة تكاد تكون واحدة من حيث الرّفص والإقصاء والانتهاكات والنّعوت السلبية. إنّ مسيرة موضوع التّراث الشّعبي أو ما يعرف تارة بالثقافة الشّعبية، وتارة أخرى بالثقافة الشّفوية، أو الفلكلور، أو التّراث المادي أو اللامادي، أو الثقافة التّقليدية، وأيضا بالمأثورات الشّعبية الخ.. وكلّها مصطلحات تمّ تداولها. فالتراث الشّعبي " مصطلح شامل نطلقه لنعني به عالما متشابكا من الموروث الحضاري، والبقايا السلوكية والقولية التي بقيت عبر التاريخ..."<sup>5</sup>

وهو يغطّي مساحة معرفية وموضوعاتية كبيرة تقاسمها مجموعات من الأشكال يصنّفها المهتمّون ضمن خانات العادات والتّقاليد والمعتقدات والخرافات والفنون والحرف التّقليدية وأشكال التعبير الأدبي الشّعبي. وعلى الرّغم ممّا فيه من حيويّة تزخر به الثقافة العامّة للمجتمع، من تراث شعبي أصيل ومن غزارة المادّة وتنوعها، وقوّة الإبداع وعراقة التّراث وامتداده التّاريخي، فقد ظلّ موضوع رفض وإقصاء من الدّائرة التّعليمية ولم يهتم به كثيراً في بداية استقلال الجزائر، حيث ظلّ ينعت نعوتاً خطيرة وخاطئة وخالية من الوعي والمسؤولية، فوصف بالضعف والسّذاجة، وقيل فيه: إنه غير جدير بالاهتمام والدراسة وفاقد للفكر العلمي. وقد "شاعت تسميات متعدّدة لهذا الميدان، واختلف الباحثون في تحديد موضوعاته التّفصيلية التي تندرج تحته. واستغرق ذلك جدلاً طويلاً (...) ولكننا يمكن أن نقول: إنه يسمى أحيانا الأدب الشّعبي كما فعلنا هنا."<sup>6</sup>

خاض المهتمون بالتراث الشعبي نضالاً ومعارك من أجل إثبات أنّه جزء لا يتجزأ من تراث هذه الأمة ومن ثقافتها وهويتها وتاريخها... وعاد التراث الشّعبي وعادات معه عمليّة الإحياء والعناية والاهتمام به كمادّة للبحث والدراسة والتدريس، فتمّ إدراجه ضمن البرامج التّعليمية، وخاصة على مستوى التّعليم العالي. بالإضافة إلى مادّة الفنون الشّعبية بالنّسبة لطلبة الفنون والمسرح. كما أدرجت اللّهجات المحليّة كمادّة أساسية في العديد من التخصّصات اللّسانية. وخصّته الدولة بميزانيات مالية معتبرة وبرامج خاصة للجمع والتدوين والصيانة والنشر. وظهرت إلى الوجود جمعيات ثقافية وفكرية وفنية راهنت على التّراث الشّعبي واشتغلت عليه، وقدّمت الندوات والملتقيات والمسابقات والمعارض والاحتفالات، من أجل التّعريف به وحمايته ومقاومة النسيان وطبعه في كتب ومجلات ونشرها بين الناس...

#### 4 - دور الحكاية الشعبية في ترسيخ المفاهيم

الحكاية كتجربة فنية تنبع من منبع أصيل، يعود بالإنسان إلى طبيعته الأولى، وإلى صفاته وانسجامه وفق علاقاته المختلفة.<sup>7</sup> وعليه فالأدب الشّعبي جزء كبير من المأثورات الشّعبية (...) ويتسم بكل ما تتسم به المأثورات الشعبية من العراقة والتلقائية الظاهرة، وغلبة العرف ووجود المضامين الثقافية، إلى جانب المرونة في التطوّر والجهل بمؤلّف النصّ في معظم الأحيان.<sup>8</sup> كما يتسم بالجماعية، إذ أنّه يهمل الفردية ويستخدم اللّغة المنطوقة العامية للتعبير وتوصيل الأفكار والحكم والعبير إلى المستمع، ويكون تقبّل الحكاية الشعبية عبر الطريقة الشّيقة في سرد الحكاية من الراوي. وهنا تنتج العلاقة التي تكسر حاجز الإبداع والتذوّق للأدب

الشعبي، كما يلعب دورا بارزا في حياة أيّ شعب من الشعوب تعبيراً عن واقعه، وتسجيلاً للأحداث الهامة من تاريخه، وتصويراً لظواهر وملامح المجتمع وتقاليدته ولآرائه الأصلية"<sup>9</sup> لذا تستهدف الحكاية الشعبية كمنتوج إنساني ثقافي تأصيل القيم والعلاقات الاجتماعية، المتعلقة بأفكار وتجارب إنسانية، وترتبط بحياة الإنسان، يحكيها الكبار للصغار، وتتردد على ألسنتهم منذ وجدت الحياة الإنسانية، وهي نابعة من عادات ومعتقدات الشعوب، منها ما يؤدي دوراً تربوياً إيجابياً، ومنها ما تكون نتيجته عكسية على نفسية الطفل وحياته بشكل عام. إنها تمثل عالماً سحرانياً يشمل جميع العوالم المرئية المدركة، وينطلق منها إلى عوالم من صنع الخيال، ففي عالم الحكاية الشعبية يلتقي عالم الإنسان بعالم الحيوان وعالم السماء والأرض، وعالم البحار دون حواجز وقدرات محدودة، لأنها بأبسط تعريف "الخبر الذي يتصل بحدث قديم ينتقل عن طريق الرواية الشفوية من جيل لآخر، أو هي خلق حرّ للخيال الشعبي ينسجه حول حوادث مهمة وشخص ومواقف تاريخية"<sup>10</sup>

قام المستشرقون في الربع الثاني من القرن التاسع عشر بجهود في طريقة اهتمامهم بالثقافة الشعبية حيث سجلوا حضوراً مهماً في البحث والتدوين لمواد التراث الشعبي، فسُجّلت معظمهما في دفاتر خاصة، بحيث تناول العديد من المستشرقين الفرنسيين منهم والألمان الحكاية الشعبية، واهتموا بها اهتماماً كبيراً وذلك لولعهم بالثقافة الشعبية بمختلف أقطار الوطن، حيث اتجهوا إلى تسجيل ورصد كلّ المأثورات الشعبية، لقد وضع الإنسان القديم حصناً نفسياً يحتوي به من التساؤلات الكثيرة، المحيطة به في هذا الكون الفسيح، جعله يستنتج، بل يضع تفسيرات لذلك، إرضاء لنفسه الحائرة" وهي المنبع الأول لأغلب الحكايات، وقد مرّت بتطوّرات عديدة للأحداث التي مرّت على الشعوب"<sup>11</sup> وحاولت بعض الدراسات الحديثة تحديد مفهوم الحكاية الشعبية أو التراثية، منها دراسة ليلي روزلين قريش "للسيرة الهلالية" إلى جانب دراستها "القصّة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، والتي أكدت فيها على دلالة الحكاية الشعبية على روح الشعب وصدق تصويره لأفكاره ومعتقداته الراسخة."<sup>12</sup>

إلى جانب دراسة عبد الحميد بورايو للقصّة الشعبية في منطقة بسكرة والحكايات الخرافية للمغرب العربي هذه الدراسة التي عملت على إعادة إنتاج هذا الإرث الجمعي، الذي يحمل في مضامينه مجموعة من الممارسات الشعبية المختلفة، فقد اتجه الباحث نحو البحث الميداني لإدراكه بأهمية الميدان وما يحمله من موروثات شعبية، ومن تجاربه الأولى في البحث الميداني تجربته بمنطقة بسكرة، خاصة قرية سيدي خالد التي تعتبر نموذجاً مهماً ارتكز عليهنّ لما تحمله المنطقة من تراث حكاياتي يعتبر أنّ طبيعة اللغة العادية غير قادرة على الإيفاء بكلّ المعاني، التي تعبق بها تجربتهم الفريدة. ولذا نراهم جميعاً تقريباً يتوسّلون بالرموز، التي يشكّل استعمالهم لها نوعاً من التّواضع على معانيها، ممّا قرب رموزهم من الرموز الاصطلاحية، أكثر ممّا قربها من الرموز الإنشائية، على الرّغم من أنّها رموز شعرية في غالبيتها.<sup>13</sup>

5- المقوم الأساسي للموروث في الأدب الشعبي:

من أشدّ القضايا حساسية في موضوع تعدّد الثقافات قضية اللّغة. فلغة أيّ شعب ربما كانت السّمة الثقافيّة الأساسيّة التي تميّزه. وكلّ لغة في العالم تُمثّل أسلوبًا فريدًا في رؤية التجربة الإنسانيّة والعالم نفسه. إلاّ أنّ اللّغة لا تزال كأداة للهيمنة والتفتيت والضمّ. ولا غرو أنّ كانت اللّغة في طليعة الحقوق التي تُطالب بها الأقليات، ومن هذه المطالب تعليم اللّغة واستخدامها بالمدارس ووسائل الإعلام. إنّ السياسات المُستنيرة تجاه الأقليات، يجب أن تحفظ لهم لغاتهم وإتاحة الفرصة أمامهم لكي ينضموا إلى المجتمع الأكبر، فينبغي تدريس عدّة لغات في المدارس، خاصّة لغتي الأغلبية والأقلية (الثقافية) لدعم قدراتهم. وهذه مسألة حيوية لتصميم نظام تعليمي مُتعدد الثقافات، يعطى الأقليات مكانًا أفضل في النظام التعليمي، وفي صدره الثقافة القوميّة التي تسعى كلّ دولة لاتّخاذها. ومثل هذا التوجّه لا يزال يلقى مقاومة من جانب السّاسة، ويتخذونه ورقة ضغط لتحقيق مكاسب مختلفة، ولذلك يمكن أن نتكلم عن فولكلور جماعة حرفية معينة أو جماعة دينية. وجوهر الفولكلور هو طبيعته التلقائية أو العضوية. فهو ثمرة خبرات وتفسيرات خبرة أشخاص يجمع بينهم تفاعل اجتماعي. ولذلك كثيرًا ما يكون هذا التّراث في صراع مع المعلومات أو القيم أو المعرفة التي تنقلها وتنشرها المؤسّسات التعليميّة الرّسمية، أو تلك المُستمدّة من ثقافة الصّفوة المتعلّمة السّائدة. ويلاحظ أنّ التّطورات الإيجابية الحديثة في تحليل الأسطورة وفي ميادين علم اللّغة والأنثروبولوجيا قدّمت إسهامات مهمّة في ميدان علم الفولكلور باعتباره دراسة لإبداع أنساق التّفسير والتّعبير عن الواقع. ويلاحظ أنّ بعض عناصر الفولكلور كثيرًا ما ترتفع إلى حيث يجري تضمينها في التّراث المُتعلّم المسيطر، حيث يمكن أن تكون منبعًا للتّجديد الفتي والاجتماعي على السّواء.<sup>14</sup>

بعدّ الموروث التّاريخي مقومًا أساسيا للأدب الشّعبي، وأنّ النقاد والدّارسين لم يلتفتوا إلى الموروث القديم بصورة كافية، واعتبروه مرة عقبية في سبيل استمرار العقيدة الدّينية، ومرة مجرد ظواهر لا قيمة لها، أو الوقوف على موروث الجزيرة العربيّة وحدها وعزل آثار المناطق الجغرافية والتّاريخية الأخرى، التي أسهمت في تكوين حصيلة الأدب الشّعبي بمختلف أنواعه.

ماذا نعني بارتباط الأدب الشّعبي بعنصري اللّغة والدّين، هل نعني أنه الأدب الخارج عن بيئته والمرتبط تاريخيا بالعطاء الصادر منها، والذي يرجع إلى الأصول التاريخيّة الأولى، مرتبطًا بهؤلاء النّاس وهذا الشعب ولغته؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل استطاعوا أن يزيلوا الموروث الحضاري للشعوب التي دخلت إلى دينهم الجديد منذ سنواته الأولى، وكوّنت من البداية المنطقة الحضارية التي صمدت أمام كلّ محاولات تفتيتها حتّى اليوم، وبمعنى آخر هل تخلّت شعوب المنطقة التي تمسّكت بهذا الانتماء عن موروثها الحضاري والشعر القديم بمجرد دخولها إلى الدين الجديد، واستخدامها لغة هذا الدّين لغة رسميّة؟

إن سبب الخلاف بين العلماء في تحديد مفهوم الأدب الشّعبي يعود أساسا إلى عنايتهم بالشّروط الخارجة عن ماهية النّصوص الأدبيّة، وقد وضعت هذه القيود في مرحلة الاهتمام بدراسة الأدب الشّعبي (الرّواية والتّوارث وجهل المؤلّف - الجماعية - التقليد أو العراقة - اللّغة العامية والفصحى - العادات والتقاليد - الوجدان الشّعبي - الذاتية الشّعبيّة - التقدّم الحضاري - القول التلقائي) وهي شروط لا تقتصر على التّعبير الشّعبي، بقدر ما يشترك في بعض منها الأدب المدوّن، وتعتبر هذه الشروط الآن جزءا من تاريخ الأدب الشّعبي، وهي شروط لا تحدّد مفهوم الشّعبيّة في الأدب، ينبغي أن ينصبّ الاهتمام في تحديد



الشعبية على النص الأدبي قبل صاحبه، الذي أبدعه والظروف التي أحاطت به، إن الجماعة تتفاعل مع النص الذي يعبر عن همومها، إن تعريف الأدب الشعبي يكمن في خصائص أخرى، ينفرد بها النص الشعبي في نظر صاحبه وتفكيره وإحساسه وتذوقه، كالاعتقاد الشديد بالغيب والالتجاء إلى اصطناع حيز غير جغرافي والتعامل المطلق مع المجهول، والإقبال على التعايش مع الكائنات الخارقة وغيرها من العناصر الغريبة والشاذة والمألوفة، التي يتألف منها الواقع المعيش. وعلى الرغم من أهمية التقسيمات الأدبية للعصور القائمة أولية الأدب الأسطوري، ثم يليه الأدب الديني، وأخير الأدب الإنساني مقترحا لتطور الأدب على مر العصور، تبقى المسألة مثيرة للجدل بعد الاكتشافات الأخيرة وإن كانت تقدم حلولاً هامة في مرحلتنا الراهنة.<sup>15</sup>

أما الأمر الذي لاشك فيه فهو أن الدين كان يلجأ إلى الأدب وما زال وسيبقى، ليؤثر في الناس. ويتجلى هذا بوضوح في حالة الدين الإسلامي. وعلى الأخص في كتاب العربية الأكبر، القرآن الكريم. الذي جاء القسم المكي منه بعامه، معتمدا أسلوب الفاصلة الموقعة، والسجع والتجنيس بنمط موسيقي عال، وعلى الأخص في قصار السور. وهذا ينسجم مع ما كان يدور في أذهان الجاهليين حول لغة المصادر الدينية، فإذا كان الشاعر أو الكاهن، بشعر الأول وسجع الأخير، من المصادر الدينية، فعلى الدعوة الجديدة أن تأتي بكلام يوازي في قوة تأثيره وإقناعه ما عندهما، وهذا شرط رئيس للرسالة اللغوية التي<sup>16</sup> دف إلى إيجاد قدر مشترك من الانسجام بين المرسل والمستقبل لتضمن بذلك نجاحها. <sup>16</sup> فإذا كان العربي يهتم بالأمر الديني ويتشوق إليه، فلا بد من أن يسمع الخبر عنه باللغة التي يألفها في ذلك السياق، وليس عجيبا أن تحقق لغة القرآن المكي تحديدا في بداية الدعوة الإسلامية مثل هذا التوجه ريثما يترسخ الفكر الديني الجديد.<sup>17</sup>

## 6 - ارتباط الثقافة والمجتمع بالموروث

يدل مصطلح المجتمع على جماعة بشرية تعلم أعضاؤها أن يعيشوا أو يشتغلوا معا ويخضعوا لقانون مشترك، في حين يدل مصطلح الثقافة على أسلوب حياة هذه الجماعة. إن الثقافة ضرب من التجريد، أما المجتمع فإنه يتألف من أفراد يتعامل معهم في الواقع. وإذا كانت الثقافة ظاهرة خاصة بالبشر فإنه من المتعذر الحديث عنها بالنسبة للفرد الواحد، ولا بالنسبة للجماعة المحدودة ما لم يشكّلوا قبيلة أو شعبا، فالثقافة بالمعنى الاجتماعي هي ذلك المجموع من الممارسات الواعية والمتعلّقة، التي يقوم بها المجتمع من أجل أن يعيش أفرادها ويتطورون وتندرج العلاقات الثقافية داخل الهيئات الاجتماعية المختلفة، التي تشجع بدورها علاقات الاندماج والتنافس والتزاع والتمثل. إن ممارسة الإنسان الحياة مع الجماعة تطرح الثقافة بوصفها من أهم القضايا الاجتماعية. لذلك يجب إدراج الثقافة ضمن مفاهيم علم الاجتماع، الذي يدرس بواسطتها نشاط الناس، ويعتبر المجتمع مجرد ملحق لتاريخ الثقافة أو تاريخ نشاط الإنسان في جميع مظاهره المادية والروحية. إن الفصل بين الثقافة المادية والروحية أمر نسبي، ذلك أن الشيء المادي من صنع الإنسان. كان موجودا في البداية كفكرة إنتاج لإبداع الإنسان الروحي. إن منتوجات الثقافة المادية والروحية هي على السواء من إنتاج النشاط البشري في المجتمع. حيث تجري في المجتمع عملية صنع أو نشر أو توزيع أو استهلاك منتوجات النشاط المادي والروحي. أما منتوجات الإنتاج المادي فلا بد من تجديد إنتاجها على الدوام، لاستهلاكها، وهي تتوزع في المجتمع كبضائع عن طريق التجارة. أما المنتوجات الروحية فيستهلكها الإنسان من خلال نظام التعليم

واكتساب اللّغة. إنّ هذا الجانب الاجتماعي للثقافة يبرز وجودها كمجموعة من العناصر الماديّة والروحية، التي تشكّل البيئة، وأنّ الحاجات الاجتماعية هي التي تحدد طبيعة الثقافة. أما تعني الثقافة مجموعة من العادات الاجتماعية التي تساعد الإنسان على حل المشكلات التي يواجهها في المجتمع بدون انقطاع. كما أنّ الأفراد يملكون إرثا اجتماعيا مثلما يملكون إرثا بيولوجيا بمعنى أنّهم يكتسبون الثقافة عن طريق التربية، إلا أنّ الإنسان ليس مجرد ناقل سلمي للتقاليد والعادات الثقافيّة، وإنّما الذي يخلقها رغبة في البقاء على قيد الحياة من جهة، وبذل المجهود من أجل تحسين حياته من جهة أخرى.

ترتبط الثقافة بالتمايز حينما يدخل المجتمع مرحلة جديدة من تطوّره، حيث ينشأ فيها التّعاضد بين العمل العضلي اليدوي والعمل الفكري، أي حينما تختصّ مجموعة من النّاس في المجتمع بتخطيط أموره الاقتصادية والسياسية ومجموعة أخرى تختصّ بالإنتاج العضلي المادي، وهذا ما نطلق عليه اسم المجتمع الطبقي. إنّ الثقافة تعبير عن النّشاط الاجتماعي ونتاج هذا النّشاط بمختلف أنواعه في آن واحد. ترتبط الثقافة في المجتمع بقانون العرض والطلب. وبهذا المعنى ينتج الجمهور موادّ ثقافية بالتّطابق مع حاجياته المباشرة واتّجاهاته، وذلك في مرحلة تاريخية محدّدة يتأثّر بها، ومن هنا يصبح الجمهور مستهلكا ومبدعا في وقت واحد. إنّ أنّه ليس للعنصر الثقافي وجود في حدّ ذاته، ولا يمكن اعتبار الحركة معزولة عن المجموع، وتطوّرها التاريخي. إنّ زوالها كمادّة ثقافيّة تساعد على ظهور أخرى. إنّ عمليّة الانقطاع والاستمرار حاضرة في إبداع كلّ أشكال التّعبير. إنّ حركة الشّباب الثقافيّة وتعبيرها في مجال الأشكال الرمزية تحيلنا بالضرورة إلى سلطات النّظام الاجتماعي، وهكذا نجد أنّ الحركات الاجتماعية وأشكال التّعبير مرتبطة ارتباطا شديدا. إنّ المبدأ الأوّل الذي تخضع له الظواهر الثقافيّة الراب، الكتابة الحائطية، الشعر العامي (تكمّن أساسا في العلاقة التي تربط فئات من الناس في المجتمع. إنّ البنيات الاجتماعية منها الأسرة. المدرسة. الجامعة. تقوم على المعارضة الثقافيّة المتعدّدة لإصلاحها الغني الفقير. الراشد /الشاب. ليست ظواهر الثقافة سوى أفعال اجتماعية تكمن وراءها القوى والتيارات والفئات والطبقات ولذلك لا يمكن الفصل بين الثقافة والصراع الاجتماعي. إنّ الصراع الثقافي والصراع الاجتماعي يسيران معا إنّ آل قوة اجتماعية تخوض النزاع تريد من خلاله أن تفرض نموذجها الثقافي. وإذا أنت الثقافة من إنتاج الشعب بأسره وأنها حاضرة في آل النشطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فإن فئات الشعب تساهم في الإنتاج والتعميم والاستهلاك بدرجات متفاوتة.<sup>18</sup>

تأخذ الحكاية الخرافية بعين الاعتبار عند قصها عمر السامع، فالحكاية الخرافية تعيش بين أوساط النساء والعجائز خاصة، لأنّهن يحفظنها ويستخدمنها باستمرار في تربية أولادهن من بنين وبنات؛ فنجد الصغار يلتقون حول أمهاتهم وجداتهم من سن الرابعة أو أقلّ إلى الرابعة عشرة مهوورين بالعالم السحري والمجهول والرائع والذي ينسج في أسلوب جّذاب لا يدع مجالا لعدم التّصديق، وهنا يدخل العامل التربوي التعليمي، فالأم أو الجدّة القاصّة هنا ليس غرضها القصّ فقط، بل تريد إيصال فكرة معينة للسامع، وهي إرساء معالم الخير في النّفس فالخير دائما ينتصر والشر عمره قصير وإن طال به الزمن وبهذا فإن عملية القصّ تأخذ بعدا تربويا اجتماعيا في تربية الأجيال ثم بعد سن الرابعة عشرة، نلاحظ في هذه المناطق خاصة النائية من ولاية أم البواقي ظاهرة الفصل بين الذكور والإناث لأنّها سن حرجة فالفتاة تبلغ سن النّضج وكذا الفتى، وتبدأ رحلة أخرى مع القصص الخرافي، فالفتاة تتعلّم من أهمها قصص الصبر والوفاء وإرساء الخير والتربية الحسنة لأنّها ستكون



امرأة المستقبل ، والفتى يذهب إلى جماعة الرجال مع أبيه للتعلّم من قصص البطولات كيف يواجه الأخطار وأحوال الحياة بحكمة وعزيمة. وعملية الفصل بين الذكور والإناث تعود إلى طبيعة المنطقة في أن الزواج يكون في سن مبكرة فالفتاة لا تبدي زينتها حتى لأبها استحياء ولا تأكل أمامه فالنساء في جهة والرجال في جهة حتى في العائلة الواحدة. وترمز الحكاية الخرافية إلى هذه الظاهرة ببعض الرموز. وربما كانت الحكاية الخرافية خيالية ولكنّها تعيش في روح الإنسان الشعبي. وتعبّر عن كيانه ومعتقداته ، يقول هيردر\* "إنّ الحكايات الشعبية بأسرها ، ومثلها الحكايات الخرافية والأساطير هي بكلّ تأكيد بقايا المعتقدات الشعبية كما أنّها بقايا تأملات الشعب الخلفية وبقايا قواه وخبراته حينما كان يحلم لأنّه لم يعرف، وحينما كان يعتقد لأنّه لم يكن يرى ، وحينما كان يؤثّر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها"<sup>19</sup>

وبالعودة إلى أثر الحكاية الخرافية في مجتمعنا ونفسيّتنا أقول : إنّها أي الحكاية الخرافية محاولة إثبات الوجود من خلال اللاموجود ، فالخيال هو وسيلتنا في الهروب من الواقع المر ، وبالتالي تعلّمنا الحكاية الشعبية الخرافية التّأقلم مع الواقع من خلال مغزاها ؛ ونجد أنفسنا في حاجة دائمة إلى الرجوع إليها متى أحسنا بأن العالم يضيق من حولنا ؛ فشخصياتها لا تعرف مستحيلات ولا تفقد الأمل ولا تعيقها صعوبات للوصول إلى مبتغاهما وهذا ما نحتاج إليه: أمل وشجاعة لمواجهة معترك الحياة.

7 - خاتمة:

خلاصة القول: إنّ التّراث المادّي والمعنوي هو الدّخيرة التي كانت محفزا بارزا لظهور جملة من العلوم كالانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس ودراسة المستحاثات، من اجل معرفة الطّبيعة الإنسانيّة، والتوقّف عند جوانب الجمال والإبداع فيها، لأنّها مزيج مادي وروحي، تشترك فيه العاطفة والعقل. لذا كان من أوكد النتائج التي توصل إليها المقال هي:

- الاهتمام بالتّراث ومحاولة الغوص في أعماق الشعوب، لأنّ البناء الحضاري متكامل.
- الأدب الشعبي على الرّغم من عدم الاهتمام به، والانتقاص من شأنه، لكنّه الوعاء الثقافي الذي يمدّ الفرد والمجتمع بمجموعة مبادئ وطرق، قصد الاستفادة منها في السلوك الفردي، أو الاتصال العلائقي.
- علم الانثروبولوجيا على الرّغم من اتّخاذها أداة في يد المستعمرين، للسيطرة على الشّعوب المقهورة، لكنّه ساهم في تبين الجوانب الفنّية والثقافية لهذه الشعوب.
- علاقة الدين بالموروث الثقافي والاجتماعي، لأنّه يصحّح المفاهيم ويجيب عن حيرة الإنسان.
- اللّغة وسيلة معيارية لقياس نبض الشّعوب في التّعبير عن ثقافتها المختلفة، والإفصاح عن طبيعتها.

الهوامش:

<sup>1</sup> - ليفى شتراوس (كتاب التنوع البشري الخلاق) مجموعة دراسات لعلماء في الأنثروبولوجيا- صادر عن المشروع القومي للترجمة- المجلس الأعلى للثقافة- رقم 27- عام 97- ص 29.

<sup>2</sup> - انظر التلي بن الشيخ. دراسات في الأدب الشعبي. الجزائر (د. تا) ص 49.

<sup>3</sup> - ينظر، مجدي وهبة، معجم المصطلحات الأدبية، مكتبة لبنان، بيروت د/ ت، ص 166.

- <sup>4</sup> - ينظر، ركن الدين محمد الوهراني، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، جمع وتحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نغش، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968 م. ص 24.
- <sup>5</sup> - فاروق خورشيد. الموروث الشعبي. بيروت 1990. ص 7.
- <sup>6</sup> - محمد الجوهري. علم الفولكلور. القاهرة 1981 الطبعة الرابعة. الجزء الأول ص 114.115.
- <sup>7</sup> - انظر كاميليا عبد الفتاح، القصيدة العربية المعاصرة، دار المطبوعات الجامعية، ط 1، مصر، 2007، ص 560.
- <sup>8</sup> - عبد الحميد يونس. معجم الفولكلور. بيروت 1983. ص 24.
- <sup>9</sup> - روزلين ليلي قريش، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. د/ ط، 1980، ص 03.
- <sup>10</sup> - نبيلة إبراهيم سالم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار غريب، د/ت، ط 3، القاهرة، ص 119.
- <sup>11</sup> - سعد الدين كاظم، الحكاية الشعبية العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1979، ص 7.
- <sup>12</sup> - قريش، روزلين ليلي (2007)، القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية. ص 45.
- <sup>13</sup> - غسان غنيم، الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة، دمشق، سورية، ط 1، 2001، ص 23، 24.
- <sup>14</sup> - شارلوت سيمور- سميث، موسوعة علم الإنسان، تر: مجموعة من المترجمين، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم 61- 1998، ص 520، 521.
- <sup>15</sup> - منى طلبية، الرمز في الأدب الأخرى، رحلة المعراج، مجلة إبداع، القاهرة، عدد 12 ديسمبر، 1997، ص 90، 91.
- <sup>16</sup> - انظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن، بيروت، ط 1، 1990، ص 157، 158.
- <sup>17</sup> - وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1997، الفصل الأول، ص 17، 29.
- <sup>18</sup> - عبد الرحمان عبد الخالق، دور الأسطورة في تنمية مخيلة الطفل العربي وإثرائها. الحوار المتمدن. العدد 1233. 2005.
- <sup>19</sup> - فريديريش فون دير لاين: الحكاية، تر: نبيلة إبراهيم، دار القلم، ط 1، بيروت 1973، ص 23، 24.